



الانتكاسات التي أعقبت النشوء الأولى المصاحبة لبداية ثورات الربيع العربي، كانت متابعة وكبيرة في كل بلد حل فيه الربيع: من انقلاب مصر إلى مجازر سوريا إلى فوضى ليبيا إلى الغموض المطبق في تونس واليمن.

ظن الكثيرون أن تلك النشوء لم تكن في محلها، وأن هذه الثورات لا تعدو أن تكون تحركات عاطفية غير محسوبة، وأن الدمار الذي خلفته هذه الثورات سيقنع الشعوب الثائرة بالحنين للماضي بعجره وبجره. وبناءً على هذه الرؤية، فإنّ مصير الثورات إلى انحسار، وإن الشعوب ستقبل بأي نظام يوفر الاستقرار وشيئاً من الأمن وسريان الحياة العادلة بعد أن ذاقت ويلات الثورات.

وهذا الموقف وأمثاله يناسب هوى الأنظمة التي تخشى انتقال العدوى إليها؛ لذا فهو مخدوم بشكل غير عادي في وسائل الإعلام ومنصات الثقافة، التي لا تزال مملوكة ومحكومة من قبل الأنظمة.

وزيدة هذا الرأي المطروح أنّ هذه الثورات ليست إلا انتفاضات مؤقتة وسوف تنتهي بسبب ما جلبه من فشل وفوضى. والترويج المدعوم لهذه الموقف يتسبب في إضعاف الفرصة أمام الرأي الآخر، الذي يقول إن الربيع العربي ليس انتفاضات عابرة، بل هو نهضة حضارية ومسيرة تاريخية شاملة تتعثر لكنّها ستفوز في الأخير.

ولو تجردنا من تدخل إعلام الأنظمة ومنصاتها الفكرية، وتجردنا كذلك من التفكير الرغبي بكل الاتجاهين؛ فما هو الرأي الصحيح؟

هل الربع العربي نهضة حضارية أم هو انتفاضة مؤقتة؟

الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تحصل بالمزايدات العاطفية والسياسية والاختزالات الفكرية، ولا بالنظرية السطحية قصيرة المدى، بل لا بد من فهم القضية بمنهجية ونظرة شاملة، ودراسة الأحداث بتفاصيلها وسباقاتها، وتأملها باستحضار التاريخ والسنن الاجتماعية.

وربما يكون أفضل السُّبُل للوصول إلى الجواب، هو في المقارنة بين النهضة الحضارية التي تحدث تغييرًا تاريخيًّا شاملًا، والانتفاضة المؤقتة التي تُقمع بسهولة، أو تلاشى مع تحصيل مطالبها، ثم تنزيل هذه المقارنة على أحداث الربع العربي.

و قبل أن نبدأ المقارنة والإجابة على هذا السؤال، نؤكد أن هذه لفقات في عصف ذهني سريع وليس بحثًا متكاملاً؛ فالبحث لا يسعه مقال قصير في صحيفة.

وما سيُقرأ هنا من فروق قد يوجد غيرها، وقد تكون مستوفيةً للمطلوب؛ فالقصد هو تسلیط الضوء على أوجه المفارقة بين النهضة والانتفاضة كما يلي:

أولاً: النهضة الحضارية مسيرة تاريخية متواصلة على مدى سنوات أو عقود، بزخم بشري يجرف ما أمامه حتى لو تعرقل قليلاً أو كثيراً.

وغالب التغييرات التاريخية الكبرى، تعرضت لعراقبيل هائلة لكن زخمها العام كان في اتجاه التغيير الشامل. أما الانتفاضة المؤقتة، فغضبُ عارض توفرت ظروف لترجمته على شكل تحرك محدود، بداعي عاطفية قابلة للامتصاص والاحتواء، يزول أثرها بالكامل خلال فترة قصيرة.

وصمود مسيرة الربع العربي كل هذه السنين، وإصرار أهله – رغم الصعوبات الهائلة ورغم التعاون العالمي لإيقافه – دليل على أنه مسيرة متواصلة وليس غضباً عارضاً قابلاً للامتصاص والاحتواء.

ثانياً: تتصف النهضة الحضارية بسعة الانتشار شعبياً، ولا تقتصر على مكان أو فئة. ربما يكون انطلاقها محدوداً بمكان معين وظروف معين لكن يتبيّن أن ذلك ليس إلا شرارة تبعث التحرك في كافة الأماكن التي تمثل أمة معينة.

أما الانتفاضة المؤقتة، فدائماً تكون في مكان واحد أو أماكن قليلة، أو لفئة محددة مثل العمال وال فلاحين، وتكون مرتبطة بالكامل بظروف انطلاقها وتموت معه في مكانها.

وبما أن الربع العربي حق انتشاراً تجاوز المدينة الواحدة إلى كامل الدولة، ثم تجاوز الحدود القطرية، وواصل المسيرة؛ فنحن قطعاً أمام نهضة حضارية ولسنا أمام انتفاضة مؤقتة.

ثالثاً: النهضة الحضارية مطلبها تغيير شامل، بإزالة آثار الماضي واستبدالها بأسس جديدة للحياة الاجتماعية والسياسية، وعلاقة الشعب مع بعضه وحكامه.

وحتى لو كان انطلاق التحرك لأجل موضوع محدود، فسرعان ما يتحول - بسبب جاهزية الناس - إلى مشروع شامل بإصرار على تغيير كلي حتى لو بعد حين.

الانتفاضة المؤقتة في المقابل غضب محدود من أجل قضية واحدة، أو قضايا مرتبطة ببعضها إما أن تُشبع فينتهي الغضب، أو تُقمع فينتهي الحراك، ولا يمكن أن تتحول إلى مشروع شامل.

ولا مجال للشك بأن مسيرة الربيع العربي مشروع تغيير شامل رغم أنها بدأت بمنطلقات بسيطة؛ وبذلك فهو نهضة حضارية وليس انتفاضة مؤقتة.

رابعاً: النهضة الحضارية وقودها إدراك واستشعار وتشرب قيم كبرى؛ مثل الكرامة والحرية والعدالة والهوية والانتدامة والمسؤولية الجماعية... وليس متوقعاً ممن يشارك في هذا الزخم أن يفلسف هذه المعاني بنفسه وبكلماته، لكنها ستبقى هي دافعه الحقيقى وفي ضميره، وإن لم يستطع التعبير عنها.

وحتى لو كانت الدوافع بطالة أو حرمان أو فقر، فإن التأثير لم يغصب لأنها حُرم منها كفرد، بل يغصب لأنها حق له ولبقية الشعب، وعلى النظام أن يوفرها لهم، باستحضار هذا التأثير وتشريبه قيمة المسؤولية.

أما الانتفاضة المؤقتة، فدواجهها شخصية، ولو كانت على شكل غضب جماعي؛ فهي محدودة بمتطلبات شخصية مرتبطة بغضبهم، ولا يمكن أن تتطور إلى القيم الكبرى؛ كالحرية والعدالة والكرامة وغيرها.

والراصد للربيع العربي، لا يخالجه شك أن وقوده هذه القيم الكبرى، ولم يطرح أي مطلب شخصي أو محدود، مما يجعلها في مساف النهضات الحضارية بكل تأكيد.

هذه الفروقات ستقودنا إلى سؤال جديد، وهو:

إن كانت هذه نهضات حضارية فلماذا تتحرك بكل هذا البطء؛ ولماذا تتعرض لكل هذه الصعوبات؟ الإجابة أن هناك حتميات (سُنن) في التاريخ لا يمكن تفاديها مطلقاً، ولا بد أن تواجهها الشعوب بكل آلامها وصعوباتها. ففي بداية فصل الربيع قد تأتي موجة برد تشعر المرأة أن الشتاء لم ينصرف بعد (بياع الخبر عباته)، لكن الحقيقة أن الفصل ربيع حقيقي، ولو مر فيه بضعة أيام تحسر فيها المرأة على بيع عباته.

الحتمية الأولى:

هي الحاجة للوقت الذي يستغرق سنيناً وعقوداً، حتى تستكمل الثورة مسيرتها في نهضة حضارية. (ثورة كرومويل) في بريطانيا احتجت أربع سنوات لجسم الأمر مع الملك، ثم احتجت عشرين سنة لاستثمار هذا النصر. الثورة الفرنسية استغرقت عدة سنوات حتى وقفت على قدميها، ثم لم تنضج بشكل كامل إلا بعد عقود. وهذا هو حال الثورة الأمريكية والبلشفية، بل وحتى العباسية على الأمويين.

الحتمية الثانية:

الفوضى المصاحبة لهذه النهضات، والتي تتفاوت من غياب السلطة المركزية إلى حروب أهلية يطول مداها. فكرومويل في بريطانيا لم يتمكن من حسم الثورة إلا بعد سلسلة معارك طويلة، نهب ضحيتها مئات الألوف من القتلى، وهذا الثورة الأمريكية والبلشفية. أما الثورة الفرنسية، فعانت من فوضى في السلطة، حتى تبدأ روبيسبيير (الشخصية الأهم في الثورة الفرنسية) بأن الشعب الفرنسي سيتمكن قائداً عسكرياً مستبداً يخلصه من هذه الفوضى، وصدق نبوءته عندما احتفى الفرنسيون بنايليون.

الحتمية الثالثة:

تأمر القوى التي تخشى من نزعة الحرية ضد هذه الثورات، بجهد هائل وتضحيات عسكرية ومالية كبيرة؛ لأن في ذلك حماية لكيانها.

وما يجري حالياً مع الربيع العربي، له سابقة تكاد تكون نسخة منه؛ وهي تأمر ممالك أوروبا ضد الثورة الفرنسية، وتدخلها

استخباراتياً ومالياً وعسكرياً من أجل إعادة الملكية.

ورغم الانتصار العسكري الظاهري لهذه الممالك، إلا أن النتيجة النهائية تحول كلّ أوروبا الملكية للديمقراطية وليس العكس.

الحتمية الرابعة:

وهي فزع قوى لا تخشى من عدوى الحرية، لكن تخشى من آثار نهضة الأمة المتحرّرة.

النموذج الأوضح للتمثيل، هو ما قامت به بريطانيا من محاربة للثورة الفرنسية، رغم أنها سبقت فرنسا إلى الحريات والحقوق. والسبب إدراك البريطانيين أن فرنسا ستكون أقدر على منافستها حين تتمتع بالحريات والحقوق، من قدرتها على المنافسة وهي في ظلّ ملكية مستبدة.

حالياً، تحرك الغرب الليبرالي الديمقراطي ومعه إسرائيل ضد ثورات الربيع العربي، كله من قبيل هذه الحتمية؛ فالغرب يخشى من آثار النهضة والتي يدرك الغرب ويعلم أنها سُتخرج العرب من فلكه بالكامل، وستجعل من مصير إسرائيل محظوظاً بالزوال.

الحتمية الخامسة: صعوبة بناء تشكيلة قيادية ناضجة بعد الثورة مباشرةً، وظهور نماذج مختلفة من العجز الإداري والتنظيمي في السلطة تضاعف مشكلة الفوضى.

والسبب في ذلك أنّ هذه الشعوب عاشت تحت أنظمة شمولية تخنق الفضاء العام وتتسطّل على الفضاء الخاص، وتمتنع بالقوة ظهور بيئة خصبة لإنتاج القيادات المبدعة.

وطول هذه المدة كفيلٌ بتعويد المجتمع على الاتكال في كل شؤونه على السلطة الشمولية؛ فلا فرق عنده بين إزالة حفرة في شارع فرعى، وبين أزمة في العلاقات الدولية، كلتا القضيتين يقف فيها المجتمع والمواطن الفرد موقف المتفرج ينتظر أن تبادر السلطة لحلّهما.

وفي حال الثورة والخروج من هذا الوضع الخانق، يصبح الثوار كمجموعةٍ تريد قيادة طائرة وصيانتها، وليس بينهم طيار ولا مساعد طيار ولا مهندس طيران ولا حتى فني صيانة.

هذه الصعوبات التي يتعرض لها الربيع العربي دليلٌ آخر على أنه يحمل ملامح النهضة الحضارية، التي سيكون مآلها نصر هذه الشعوب المستضعفة، وتمكن قوى الخير والحق لأنْ تولّى زمام الأمور.

كما أنّه دليلٌ على أن المسيرة طويلة والصعوبات التي ستلاقيها الشعوب لن تنتهي عند انقلاب هنا، أو مجرة هناك؛ بل هناك مشاكل وأمراض أكبر وأعمق لم تظهر على السطح بعد.

وإذا استحضرنا مبدأ (المؤرخ توبيني) في التحدى والاستجابة؛ فإن هذه التحديات ستزيد الربيع العربي صفاءً وقوّةً ومتانةً، والاستجابة لها سوف تنقل هذه الشعوب المستضعفة إلى مرحلة تفوق حضاريّ وقيادة بشرية بانت ملامحها، بحمد الله.

التقرير

المصادر: